رحيل

ياسين رفاعية الكاتب الذي

من دمشق إلى بيروت... مسيرة في تدوين الشقاء

خليل صويلح

بدت القصص الأولى التي كتبها ياسين رفاعية (1934 ـ 2016)، كما لو أنها خارجة من بيت النار في الفرن الذي كان يعمل فيه. الصبي الذي ولد في حي العقيبة الدمشقي طحنته الحياة باكراً، فاكتشف قسوة العيش

في «العصافير» (1980)، سيبلغ ذروة منجزه القصصي لجهة الابتكار والكثافة التعبيرية

وجهاً لوجه. كان يحمل صينية الكعك ويقف بها أمام «سينما غازي» يتفرّج عن بعد على ما يدور في مصنع الأحلام، وإذا به ينجذب إلى تلك القصص المتخيّلة في السينما أو إلى تلك التي كان يقرأها في الروايات البوليسية، قبل أن يجرّب الكتابة بنفسه.

لم يكن بحاجة إلى ابتكار عالم متخيّل. وجد ضالّته أولاً في يوميات ماسح أحذية يعرفه عن قرب، فكتب قصة عنه وأرسلها إلى مسابقة كانت قد أعلنت عنها مجلة «أهل النفط» في بغداد التي كان يديرها جبرا إبراهيم جبرا، وإذا بها تحصد الجائزة الأولى. هذه المفاجأة وضعته أمام عتبة أخرى في الكتابة. ومثلما اقتحم حدّاد في حيّ البحصة اسمه زكريا تامر الحياة الأدبية، أتى هذا الفرّان بخبزه الأسود إلى مطحنة الخيال. كان الاثنان يلتقيان ليلاً في مقبرة مجاورة يتناقشان بما أنجزاه من قصص. كان الأول كابوسياً وتجريبياً، فيما انشغل الثاني في مجموعته الأولى «الحزن في كل مكان» (1960) بالعيش في التجربة وتدوين الشقاء، فغرق في أوحال الأزقّة المهملة ونماذجها البشرية

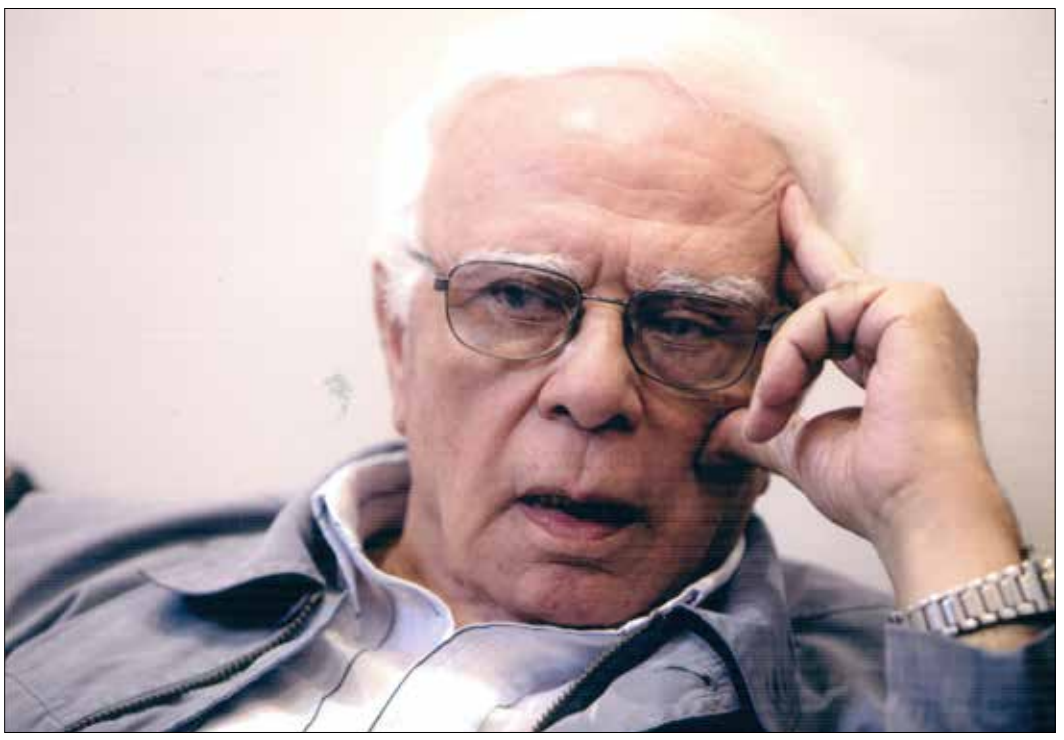

في بؤسها وعشقها وخيباتها. يهتف بطل قصة «العالم يغرق»: «الصخرة ثقيلة. الصخرة ثقيلة. وسيظل العالم في انحداره الأبدي يغرق في بحر آسن». ثم أتبعها بمجموعة ثانيةٍ أكثر نضجاً هي «العالم يغرق» (1963). هكذا حفر اسمه بيديه وأعصابه وانفعالاته ليصبح واحداً من أبرز كتّاب الموجة الثانية في القصة السورية بعد جيل الروّاد. عمله في الصحافة الدمشقية في تلك الفترة، لم يشغله عن كتابة القصة، على العكس تماماً، فقد تتالت أعماله بغزارة، سواء في القصة أو في الرواية أو في الشعر. تنطوي الحكاية في أعماله الأولى على واقعية خشنة تنبئ عن عزلة الكائن البشري وبؤسه وعذاباته. أشخاص هامشيون وبسطاء في شوارع تضج بالحياة، لا يجدون مكاناً لهم وسط الجموع، بأحلام مؤجلة يصعب تحقيقها. هكذا تتكرر مفردات مثل: القسوة والفجيعة والعدم والموت والمقابر: «أشعر كأنني ولدت على فراش من شقاء» يقول. مع «الرجال الخطِرون» (1979)، تذهب قصص ياسين رفاعية إلى الكثافة والاختزال يحيط بها عالم مغلق وكتيم وعنيف. أشخاص مراقبون على الدوام. مطاردات واستجوابات واتهامات تنتهي بالاعتقال أو القتل. يضيق المكان إلى حدود زنزانة معتمة، أو أقبية رطبة، أو غرف تعذيب. إنه زمن صعود المخابرات، وانتهاك حرية الفرد وحبس أنفاسه، في متوالية سردية تنطوي على وقائع مخزية. لكنه في «العصافير» (1980) ذات النبرة الشعرية، سيبلغ ذروة منجزه القصصي لجهة الابتكار والكثافة التعبيرية. قصص صاحب «مصرع الماس» إذاً، هي استرجاع وقائع معيشة أكثر منها تجارب تخييلية؛ إذ يتفوق الحكواتي على السارد في معظم نماذجها، بعيداً عن التجريبية التي وسمت تجارب مجايليه أمثال زكريا تامر، وسعيد حورانية، وجورج سالم.

هجرته المبكرة إلى بيروت الستينيات التي كانت حينذاك مركزاً ثقافياً بامتياز، وضعته أمام أسئلة أخرى أكثر جذرية، فهو لم يتردد في تغذية عوالمه السردية باعترافات جريئة، نابشاً مناطق سريّة في حياته، من دون أقنعة. وستقوده الحرب الأهلية اللبنانية في سبعينيات القرن العشرين إلى الرواية، إذ عاش وقائعها عن كثب. كانت روايته «الممر» (1978) وثيقة مهمة في نفض الغبار عن تلك الحرب الطاحنة، ثم استكمل جوانب أخرى من هذه الحرب في ثلاث روايات لاحقة «رأس بيروت»، و«امرأة غامضة»، و«دماء بالألوان».

رحيل رفيقة دربه الشاعرة أمل جراح (1945 ـ 2004) إثر مرضٍ عضال، أصابه بصدمة كبرى، قبل أنْ يستعيد ذكرياته معها في روايته الموجعة «الحياة عندما تصبح وهماً» (2008) كنوع من التوازن النفسي في مواجهة الفقد. وسوف يغرق بعد هذه التجربة في أوقاتٍ عصيبة، سعى للانتصار عليها بالكتابة المستمرة والغزيرة والمؤلمة، رغم إصابته بداء النسيان. وهذا ما جعله يلتفت في أعماله الأخيرة إلى تشريح أحوال شخصيات تعيش شقاء الشيخوخة، وأمراض الوحدة، وصعوبة العيش.

يوارى الثرى عند الواحدة ظهر اليوم في مقبرة الشهداء في بيروت قرب ضريح زوجته الشاعرة أمل جرّاح.

«اعترافات» الأيام الأخيرة

عناية جابر

لدى سماعي نبأ موت الأديب ياسين رفاعية، ما كان لي سوى استعادته في البال من خلال المقابلة الأخيرة (الأخبار 2015/8/5) التي أجريتها معه. أظن أنّ رفاعية تظاهر يومها، بتمام صحته، رغبة منه في حصر اهتمامي وأسئلتي في كتابه «ياسمين» (دار جداول) الصادر حديثاً عن ابنته المتوفاة (موضوع مقابلتنا)، كفعل تطهّر أخير منه، يدلي فيه الكاتب باعترافات تؤرقه.

قعدتُ أنتظره في المقهى القريب من بيتي وبيته في شارع الحمرا، الى أن لاح متثاقل الخطو تجرّه إحدى قريباته على ما أعتقد. خطوات متثاقلة على عكس أجوبته التي تدفّقت كقافلة مسرعة كما لو تُسابق موتاً وشيكاً.

سوريا بلده كانت المبتدأ، ثم بيروت التي أحبّ وأمضى جلّ عمره فيها، الى استعادة لغرامه بزوجته الشاعرة الراحلة أمل جراح، ثم مرضها وموتها، وصولاً الى موضوع كتابه، عن ابنته الشابة التي كانت قد قضت حديثاً إثر مرض عضال، بعد مراكمات من سوء التفاهم معها انتهت بغفرانه وغفرانها.

في حضور رفاعية ـ وعلى الرغم من مرضه البادي ـ هناك ذلك الملمح الذي يتصدى لليأس والموت، من خلال محاولة اجتراح فهم أفضل للحياة، عبر الوقوع في غرام المكان الذي هو فيه، والتصالح معه ومع ناسه كما في علاقته ببيروت، كذلك الاعتناء بنفسه وهندامه، محاذراً الوقوع في أسر المرض المعتم، القابض، الذي أغرق جسده بالرعب. ظلّ ياسين رفاعية يُردّد على مسمعي كلما هممت بالاستراحة قليلاً من تدوين أجوبته: «اكتبي، اكتبي بسرعة، فأنا أهديك هنا كل اعترافاتي السيئة منها والحسنة. ولعل الوقت والمرض لن يسمحا لي بعد بفعل هذا ثانية». الهاجس الوحيد كان حضور ابنته التي قضت شابة، وترقد الآن كحنين مقيم في أعماقه، رغم بقائه المؤلم على خصام معها في حياتها، وهو حافظ على جفائه لها بصرامة لافتة، حتى قضت بشكل مؤثر.

في تواز صارم، عاش رفاعية حياته البيروتية، مفرداً أوقاتاً لا تحيد، للمقهى وللأصدقاء القليلين، للمعجبات ولنساء حياته، وللكتابة المثابرة التي كان يرفدنا بها كل عام. رغم لطف رفاعية ودماثته لمن يعرفه عن قرب، ظل بعيداً عن أجواء الشلل والجماعات بالمفهوم الصاخب للكلمة، مكتفياً بحب بيروت والتسكع في شوارعها، هي التي احترمت رأيه ومعتقده السياسي والفكري والأدبي، وهيأت له رغد الكتابة والتأليف والنشر، والحب والوحدة والعزلة الى حد، واحترمت خصوصياته على ما يرغب ويشتهي. لا يبدو رفاعية عن قرب، على كثير من التعقيد، بل تخللت جلساتنا معاً، السابقة وتلك الأخيرة، المزاح وتعداد مزايا وثراء الطبخ الشامي، ووصف الحارات السورية والأزقة، كما لو أنّه يصف لي عالماً لن تتسنى له رؤيته مجدداً.

أدار رفاعية ظهره لكل الأحكام المسبقة في كتبه ورواياته، فهو يكتب على ما كان يقول، كي يبدع نظامه الأدبي الخاص، عبر الجمال والحياة انطلاقاً مما كان يحيطه، رغم أن محيطه البيروتي هذا ليس سوى ـ على ما قال لي ـ نسخة مهلهلة عن بيروت ـ زمان، التي عرفها سابقاً.

أدار ظهره لكل الأحكام المسبقة في كتبه ورواياته

لم يأسَ في حديثه لي على الأوضاع في سوريا، ولا على ناس سوريا، لكن لمعة الحنين كانت تطلّ بين جملة وأخرى، تُزيد من انحناءة الرجل على الطاولة ما بيننا.

تعرّض رفاعية لجميع الأفكار في أدبه: الحب، العائلة، سوريا، بيروت، الأصحاب، النساء، بيد أنه لم يسقط في فخ «الأدب الملتزم». عرف الرجل كيف يُرطّب في كتابته من آلام شعبه، عبر مفرداته الخاصة ومحاولة إضفاء أمل ما على توجسه الداخلي، ورعبه من الآتي.

روايات الحرب الأهلية

إلى جانب دمشق، حضرت بيروت ووقائع الحرب الأهلية في القصص المحكية لياسين رفاعية، كما شكلت خلفية عدد كبير من كتبه التي تجاوزت العشرين. تسرب ثقل الحرب اللبنانية إلى أحداث «الممر» (1978) أولى الروايات التي صنفت ضمن أعمال الحرب الأهلية. من خلال قصة حب، أدخل الروائي السوري تفاصيل الاقتتال المسيحي المسلم على الهوية، على هامش قصة مثقف يحلم بتحول إيجابي، ويدفع حياته ثمناً للحب، مصلوباً كما المسيح. وفي «رأس بيروت» (1992) التي حملت اسم المنطقة التي عاش فيها حتى رحيله أمس، تتبع رفاعية يوميات الحرب، وتفاصيل الاجتياح الإسرائيلي للعاصمة اللبنانية. بطل الرواية هو عبد القادر الذي أتى إلى المدينة كبائع صحف ورث المهنة عن والده، ليعتاده الناس وسكان الأبنية، قبل أن يختفي فجأة في ظروف غامضة. يقدم رفاعية هنا ما يشبه الرصد الشامل لمصائر الناس في رأس بيروت، التي كانت خالية من المقاتلين، لكن الظروف القاسية كانقطاع الماء والكهرباء حوّلتهم إلى مشاريع مقاتلين. «امرأة غامضة» (1993) هي محطة أخرى مع العاصمة اللبنانية. يأخذنا رفاعية إلى الثمانينيات، آخر مراحل الحرب الأهلية من خلال قصة رجل أربعيني مغرم بشابّة عشرينية يلفّ الغموض شخصيتها، فيسعى هو إلى تبديده. وفي «دماء بالألوان» (1988)، يقف الرسام وديع الخال أمام حياته التي دمرتها أشباح بيروت بعدما خسر لوحاته ودفاتره وأوراقه.